قصة قصيرة

السائحة

صيام محمد

« لستُ شقراء . . ليست عيناي زرقاوين . . كما أني أتقن لهجة أهل البلاد وأتكلمها بلا لكنة . . مع ذلك ، فالأطفال حولي ينادونني « السائحة » وكذلك الباعة وأصحاب المحلات والمقاهي . . كيف ؟ دهشتُ ثم اعتدتُ ذلك وتقبّلته منهم . . نسيتُ أسمي ، بل تناسيته . . لكنني لم أنسَ أنني لستُ سائحة في هذه البلاد . .

تجولتُ في شوارعها نعم . . غطستُ في أعماق كل زحمة ، غطستُ ثم طلعتُ . . ثم غطستُ مرة ثانية وثالثة وعاشرة . . لم أكن أبحث عن قطعة أثرية جميلة أزيّن بها صدر داري حين عودتي . . لا ، لم أكن أبحث إلاّ عن ذكراك » . .

توقفتْ قرب صخرة كبيرة . . إعتراها ألم كبير . . فجأة دون مقدمات والبحر يمتدّ أمامها هادئاً رحباً ، تراءت لها زرقته متوهجة مؤطرة بالشمس يطفو عليها الماضي حنوناً ساكناً . إنزلقتْ قدماها نحو الماء . . أغمضت عينيها وضغطت عليها بيديها . . أحست بهما تسخنان تحت الجفون ، ماء البحر يسخن حول قدميها . . لعقت شفتيها ، كانتا مالحتين . . لم تكن تدري أنها كانت تبكي . . كانت وحيدة إلا من البحر والألم ، حاولت أن تركز ، لم تكن تريد للألم أن ينفلت . . إنه ألمها وحدها ، لا يشاركها به أحد . . شعرت بما يشبه اللّذة . . لذّة مسكينة . . لذّة المنتصر حين ينفرد بنفسه فيجد أنه مثخن بالجراح وأن جراحه شديدة الخطورة . .

انفجرت ينابيع الحزن وتدفقت دموعاً مرّة . . من خلالها رأت عينيه سوداوين تحترقان دون لهب . . قدماها تغوصان . . الرمل المبلّل يتدحرج لصق جلدها وهي تغوص . حاولت أن تغريه . . من خلال يأسها أرادت استدراج ذكراه . . ترى هل كانت ذكراه حبيسة إحدى المحارات المدفونة في قاع البحر الممتدّ أمام بصرها ساحقاً ومعذّباً لأمانيها ؟ . . الدموع الغزيرة التي ذرفتها غاضت وكأن يداً ما امتدّت من غياهب الماضي لتجفّفها . .

امتدّت أصابعي . . احتضنتُ كفَّهُ . . رفعتُها ، قرّبتُها من وجهي ، ضغطتُها فوق خدي . . تململتْ . . زحفتْ نحو شعري . . اخترقته ، وجهه مبتهج . . عيناه سعيدتان يرقص في أعماق ما حبّ كبير . . غصتُ فيهما . . تأملتُ وأمواج البحر ترتطم بساقيّ وأنا متمسكة بنتوءات الصخرة الكبيرة . . إنه حبّي أنا . . صورتي منقوشة داخل عينيه ، مزهرة فوّاحة . . أغلقَ جفونه ثم قال مبتسماً :

ـ إني أحتفظ بك في مأمن . . داخل عينيّ . . تحت جفوني . . هل من مكان أكثر أمناً عليك من عينيّ ؟ . .

كنت مرتاحة ومطمئنة وواثقة . . والقَدر الساحق يبدّد الأحلام ، الرمل المبلّل يفتت الذكرى ويبدّدها . . قدمي تتزحلق . . أتشبث بالصخرة . . الماء المالح يغمر ساقيّ . . لم أعد أبكي . . وبدا الوقت دهراً والسنوات تجلد الذكرى وأنا وحيدة معك . . بعيدة ، والمدينة الجنوبية الحبيبة ترحل والأهل يغرقون في ضباب الماضي . . حتى شطّ العرب ، خلع عنه كسوته الفاتحة الاخضرار . . الرائعة الجمال ليرتدي هذا المدى الارزق المتسع الممتد أمامي مطرزاً بغابات النخيل

المسحورة بماضي عمري ، المبتعد عني دون وداع . .

كنتَ وحدك مدينتي . . ذراعاك تحوطانني دافئتين دفء دروب مدينتي . . في عينيك نام الشطّ والسعف والبساتين . . في شفتيك سَكَن صوت أبي وقبلات أمي وحلاوة وجه أختي . . وتجلدني السنوات » .

امتدّت أصابعها تتحسّس الجسد المنغرز في الرمل . . كل قطعة في هذا الجسد تضجّ بالشكوى والحسرة والحنين . . الحنين إليه ؟ لم تكن تدري . . لعلّه للماضي البعيد الناصع مثل زَبَد البحر المنفوش المرتطم بساقيها . .

وبدا الماضي متوهّجاً منذ أن غرست نفسها تحت جلده . . زهرة برّية تعبق بعطر الجنوب . . تنفّسته . . شربتْ منه الحياة حتى ترعرعت هنا وأصبحت قطعة من هذا الساحل . تشبثت بالصخرة التي تحمل منه ومنها ذكرى السنوات المفعمة بالود والأمان . . كم هو عدد تلك السنوات يا ترى ؟ . . لم تعد تذكر . . اعتصرت جبينها . . تعثّرت . . غرقت أطراف ثوبها . . لم تعد تذكر . . لعله العمر كله . . شطّ العرب يعبث بين أمواج البحر صاخباً كطفل صغير ، وغابات النخيل تعوم وسط قلبها خافتة الأنين . .

« صوت أبي لم يكن قاسياً مفجعاً كما كان صوتك بالأمس . . كيف خدعتني وأنت تقول : ـ

لا تبالى ، سأظل أحمل لكِ ومع كل كلمة أهمس بها إليكِ صوت أبيك وحنان أمك . .

اقشعّر بدنها : ـ لم تكن تهمس إليّ . . كنتَ تصرخ كالغريب . .

اشتدت الريح وبرد الجو . . علت أمواج البحر عاتية . . في لحظة واحدة اكتسى البحر لوناً داكناً . . هرولت أمواجه نحوي مرعدة . . شعرتُ بالخوف . . فأنا وحدي مع ألمي وذكرياتي . . شطّ العرب يجاهد كي لا تجرفه الأمواج ، يلملم سعف نخيله متوجهاً نحو الجنوب . .

لست سائحة ولم أكن يوماً سائحة في بلادك . . لم أزر مدينة أثرية ولم أبحث عن زيّ تقليدي أعرضه على صديقاتي حين أعود . ويبرد ماء البحر ، تتلاحم سحب خريفية لتغطي ضوء الشمس . . ضوء النهار ينساب ثم يتلاشى داخل عينيّ . . السحب تزخّني قطعاً ثلجية ناعمة . .

وفيما أنا شبه متجمدة خيل إليّ أن شخصاً ما يمرّ بجانبي . . نظرته فوجدته يحمل وجهك ويسير . . اغتصبت قدميّ المدفونتين وسط الرمال المتجمدة . . لا أريد أن أدفن هنا « قلتُ لنفسي » . . هرعتُ إليك . . أردتُ أن أحتمي بذراعيك . . أن أرى صورة وجهي المنقوشة في عينيك . . فوجئت . . فقد وجدتك رجلاً معوقاً بلا ذراعين . . رفعت وجهي إلى عينيك فلم ارَ إلا قطعتين صغيرتين من الصقيع .

بغداد

صدر حديثاً

الرواية العربية :
النشأة والتحوّل

تأليف الدكتور محسن جاسم الموسوي

منشورات دار الآداب